من الفرضيات إلى الحقائق الأنثروبولوجيا الشعبية وصناعة اليقين الزائف

تنتشر في الخطاب المعاصر قراءات مبسطة لفرضيات علمية وأبحاث أنثروبولوجية، تُقدَّم بوصفها أجوبة نهائية عن الدين والوعي والحضارة. ولا تكمن المشكلة في البحث العلمي نفسه، بل في الانتقال السريع من احتمال قابل للنقاش إلى يقين يُعرض على الجمهور باعتباره حقيقة مستقرة. وينبغي التنبيه إلى أن «الفرضية» في العلم ليست تخمينًا ضعيفًا، بل ادعاء قابل للاختبار؛ فالمشكلة ليست في كون الشيء فرضية، بل في تقديمه كأنه حقيقة محسومة قبل أن يستوفي شروط الاختبار والتكرار.

فالقارئ العام لا يطالع غالبًا الدراسة الأصلية، بل يتلقى خلاصتها من عنوان صحفي أو مقطع قصير. وفي هذا الانتقال تضيع عبارات مثل «ربما» و«تشير النتائج إلى»، لتحل محلها عبارات من قبيل «العلم أثبت» أو «اكتشف العلماء أصل الدين». وغالبًا لا يكون هذا مجرد تبسيط لغوي؛ فهو يخدم الرغبة في تقديم معلومة ناجزة ومنح المتلقي اليقين الذي يطلبه، ولو على حساب الموضوعية.

لكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا تنتشر هذه الروايات بهذا القدر من الثقة؟ يمكن تعريف الأنثروبولوجيا الشعبية بأنها منظومة روايات مبسطة تلتقط مصطلحات من العلوم الإنسانية، ثم تعيد تركيبها خارج سياقها الأكاديمي لتقديم أجوبة شاملة عن أصل الدين أو الحضارة أو الوعي. وهذه الروايات لا تُنتج غالبًا داخل الجامعات، بل في فضاءات المحتوى الرقمي التي تحكمها الخوارزميات واقتصاد الانتباه: العناوين الحاسمة تُشارَك أكثر من الصيغ المشروطة، واليقين يُروَّج أكثر من الاحتمال. ولهذا فإن انتشارها لا يُفسَّر بالجهل المنهجي وحده، بل بشروط إنتاج الخطاب وانتشاره أيضًا؛ فالمشكلة ليست معرفية فقط، بل تتعلق ببنية الفضاء الذي تُنتج فيه هذه الروايات وتُستهلك.هنا ينبغي التمييز بين ثلاثة مستويات في بناء المعرفة. الأول: ما تثبته البيانات فعلًا ضمن أدوات الدراسة وعينتها وشروطها. الثاني: التفسير الذي يقترحه الباحثون لفهم النتائج وربطها بظاهرة أوسع؛ فقد تكون البيانات صحيحة لكن تفسيرها يظل واحدًا من تفسيرات ممكنة. الثالث: الاستنتاج الفلسفي أو الأيديولوجي الذي يبنيه آخرون على ذلك التفسير، كأن تتحول نتيجة محدودة حول تأثير مادة في الدماغ إلى حكم شامل على الدين أو الوعي. فالانتقال من البيانات إلى تفسيرها يحتاج إلى حجة، والانتقال من التفسير إلى استنتاج فلسفي واسع يحتاج إلى حجة إضافية، لأن النتيجة لا تصبح أقوى لمجرد أنها أُسندت إلى كلمة «العلم».

الدليل ليس تأويله

لا تكفي صحة المعطيات لضمان صحة كل تفسير يُبنى عليها. فقد تكون البيانات موثوقة بينما يظل معناها محل نقاش، أو تكون الأدلة محدودة ثم تُحمَّل دلالات أوسع مما تسمح به. كما أن وجود علاقة بين ظاهرتين لا يثبت بالضرورة أن إحداهما سببت الأخرى، ووجود تفسير ممكن لا يعني أنه التفسير الوحيد أو النهائي.

لذلك لا ينتهي السؤال العلمي بالحصول على معلومة، بل يبدأ بعدها: ما الذي تثبته؟ وما الذي لا تثبته؟ وهل تكررت النتيجة؟ وتتفاقم المشكلة حين تُنقل النتائج من مجال إلى آخر دون مبرر؛ فقد تكشف دراسة عصبية عن آلية في الدماغ، لكن ذلك لا يمنحها تلقائيًا القدرة على حسم سؤال فلسفي عن معنى التجربة الإنسانية.

ويُعرض هنا مثالان فقط، لا لأنهما يمثلان جميع الحالات، بل لأنهما من الحالات التي شاعت فيها القفزات الاستنتاجية في الخطاب العام.

فرضية القرد المهلوس

من الأمثلة المتداولة ما يُعرف بفرضية «القرد المهلوس»، المرتبطة بتيرينس ماكينا. وتفترض، بصيغة عامة، أن تناول بعض أسلاف البشر مواد مهلوسة ربما كان له دور في تغيرات إدراكية أو سلوكية أسهمت في تطور الوعي أو اللغة أو أشكال من التدين.

ينبغي التمييز بين مستويين: الأول يتعلق بتأثير المواد المهلوسة في الإدراك والسلوك، وهو موضوع قابل للدراسة نفسيًا وعصبيًا. أما الثاني فيتعلق بادعاء تاريخي وتطوري واسع: هل كانت هذه المواد عاملًا حاسمًا في ظهور اللغة أو الوعي أو الدين؟ هذا الادعاء يحتاج إلى أدلة قوية ومباشرة، وهي ليست متاحة بالقدر الذي يسمح بتحويله إلى تفسير محسوم.

غير أن التداول الشعبي يتجاوز حدود الفرضية أحيانًا، فينتقل من القول إن بعض المواد قد تؤثر في الوعي إلى القول إن الدين ليس أكثر من نتيجة كيميائية في الدماغ. وهذا انتقال غير لازم؛ فحتى لو ثبت وجود آليات عصبية في التجربة الدينية، فإن تفسير كيفية حدوثها لا يحسم وحده سؤال معناها أو صدق موضوعها. شرح الآلية لا يساوي نفي المعنى، وتفسير الاعتقاد لا يساوي بالضرورة نفي موضوع الاعتقاد.

البيرة قبل الخبز

تذهب فرضية «البيرة قبل الخبز» إلى أن إنتاج المشروبات المخمرة ربما شجع بعض الجماعات القديمة على زراعة الحبوب أو الاستقرار. وتشير بعض الأدلة الأثرية إلى وجود بقايا تخمير في مواقع مبكرة، لكن الانتقال من وجود تخمير إلى القول بأنه كان دافعًا رئيسًا للاستقرار الزراعي يتطلب أدلة على النية والأولوية الزمنية والدور السببي، وهي أمور يصعب إثباتها من بقايا مادية محدودة.

والإشكال يظهر حين تتحول الفرضية من احتمال جزئي إلى قصة شاملة، فيقال إن الحضارة قامت من أجل البيرة. فظهور الزراعة والاستقرار عمليات معقدة تتداخل فيها عوامل بيئية واقتصادية وسكانية واجتماعية ودينية. وقد يكون التخمير أحد العوامل في بعض البيئات، دون أن يكون العامل الوحيد أو الغاية التي تفسر نشوء الحضارة كلها.

من تفسير التدين إلى اختزاله

تسعى الأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع إلى تفسير الظاهرة الدينية من خلال وظائفها الاجتماعية وعمليات تشكلها وظروفها التاريخية والنفسية. لكن ينبغي التمييز بين أسئلة مختلفة: ما الوظائف التي يؤديها الدين داخل الجماعة؟ كيف تتشكل المعتقدات وتنتقل؟ وما الظروف التي تساعد على انتشار تصور ديني معين؟ هذه أسئلة تختلف عن سؤال آخر يتعلق بصدق الدين أو حقيقة موضوعه.

قد تجيب لعلوم الإنسانية عن أسئلة الوظائف والعمليات بدرجات مختلفة، لكنها لا تحسم بمناهجها وحدها جميع المسائل الميتافيزيقية. وهذا لا يعني أنها محايدة تمامًا تجاه الأسئلة الفلسفية؛ فبعض النتائج قد تضيّق مجال الاحتمالات الميتافيزيقية أو تفتح أسئلة جديدة. لكن الانتقال من نتيجة علمية إلى حكم ميتافيزيقي شامل يظل بحاجة إلى حجة فلسفية مستقلة.

والقول إنللدين وظيفة اجتماعية لا يعني أنه مجرد وظيفة اجتماعية. فالوصف العلمي يصف ما يحدث وكيف يحدث، لكنه لا ينتقل تلقائيًا إلى تقييم ما إذا كان صادقًا أو زائفًا؛ ذلك أن الانتقال من الوصف إلى التقييم يحتاج إلى حجة مستقلة. وهذا التحذير لا يقلل من قيمة هذه العلوم، بل على العكس: فهي تقدّم معرفة ضرورية عن كيفية تشكل المعتقدات وانتقالها ووظائفها. المشكلة ليست فيها، بل في تحميلها أسئلة تتجاوز مناهجها.

كيف نقرأ الادعاء العلمي؟

لا يحتاج القارئ إلى أن يكون متخصصًا كي يتجنب اليقين الزائف، لكنه يحتاج إلى أسئلة بسيطة: هل المصدر دراسة أصلية أم خبر صحفي؟ هل تتحدث النتيجة عن ارتباط أم عن علاقة سببية؟ ما حجم الأدلة؟ وهل تكررت في دراسات مستقلة؟ وهل أُجريت على عينة بشرية محدودة أو على حيوانات أو على محاكاة حاسوبية؟ وهل تعرض المادة حدود الدراسة والاعتراضات عليها، أم تذكر النتيجة وحدها؟ وهل ورد الاستنتاج في الدراسة نفسها، أم أضافه الكاتب أو المتحدث؟

كما ينبغي الانتباه إلى الفرق بين نطاق النتيجة والعنوان؛ فقد تكون الدراسة محدودة ثم يعممها العنوان على البشرية كلها، وقد تستخدم لغة الاحتمال بينما يستخدم العنوان لغة الحسم.

خاتمة

لا تثبت فرضية القرد المهلوس أن الدين نتج عن المخدرات، ولا تثبت فرضية البيرة قبل الخبز أن الحضارة قامت من أجل التخمير. كما أن تفسير التدين نفسيًا أو اجتماعيًا لا يثبت، وحده، أنه وهم.

يكمن أحد أخطر مصادر الخلل في الخلط بين المعطى وتأويله، وبين الفرضية والنتيجة المحسومة، وبين التفسير الجزئي والرواية الشاملة. فصحة الواقعة لا تمنح تلقائيًا الشرعية لكل استنتاج يُبنى عليها، وقوة الدليل في مجال معين لا تنتقل آليًا إلى مجالات أخرى. ولا يعني ذلك أن كل تفسير جزئي مشكوك فيه بالضرورة، بل أن كل تفسير يحتاج إلى قدر من الحجة يتناسب مع حجم ما يُبنى عليه من استنتاجات.

تبدأ المعرفة الجادة ين نسأل: ماذا نعرف؟ وكيف عرفناه؟ وما حدود ما نعرفه؟ وليس كل ما يمكن تفسيره قابلًا للاختزال، وليس كل ما يمكن وصف آليته قد حُسمت حقيقته أو معناه. وبين الورقة العلمية والعنوان الصحفي مسافة ينبغي ألا يختصرها التكرار أو الإثارة أو الرغبة في امتلاك جواب نهائي عن كل سؤال.